وظائف العبيد والإماء أمام الفتن والبلاء (٢)

عباد الله! ما زال الحديث مستمرا، وما زال الابتلاء مستمرا، وقد علمنا أن الابتلاءات التي تصيب بلادنا وتزداد شدتها سببها الذنوب والمعاصي، وكذلك علمنا أن المسلم عليه وظائف يقوم بها، وأكدنا في الخطبة الماضية على معنيين هامين؛ أولهما: أن بقدر اتهام المرء لغيره بأنه سبب البلاء بقدر تبرئة المرء لنفسه، مع أن نفس المرء العاصية التي عصت، وغفلت، وقصرت هي سبب ذلك كله، والمعنى الآخر: أن نستشعر أن الابتلاء محنة من الممكن أن تتحول إلى منحة وذلك بالرجوع إلى الله، والتوبة، والإنابة، ومن الممكن أن تزداد شدة البلاء والمحنة إذا ظل المرء على معصيته ولم يرجع إلى ربه.

ومن آثار المعاصي:

- الوهن في القلب والبدن: فيجد المرء أن قلبه يضعف شيئا فشيئا، فإذا زادت المعاصي؛ مات القلب، فلا يجد للموعظة أثرا، ولا يجد للهداية مسلكا، ووهن القلب يتبعه وهن البدن؛ لأن البدن يستمد قوته على الحقيقة من قوة القلب، فترى الرجل يكون مريضا، ومع ذلك يحافظ على الصلاة، ثم تجده وهو صحيح كسولا عن بعض الطاعات التي كان يقوم بها حال مرضه.
- قصر العمر: والعلماء مع هذا الأثر لهم آراء:

فمنهم يرى أن المعاصي سبب لقصر العمر؛ لأنها تمحق بركته، فالإمام النووي رحمه الله مات في سن الخامسة والأربعين تقريبا وقد ترك ما ترك من العلم، ويعيش آخر ويعمر ولا بركة في حياته.

ومنهم من يرى أن المعاصي سبب لقصر العمر على الحقيقة، فكما أن صلة الرحم تطيل العمر على الحقيقة، فإن المعاصي تقصر العمر على الحقيقة، بأن يكتب الله أن فلانا عمره كذا، وبفعله المعاصي؛ فإن عمره سيقل إلى كذا.

ومنهم من يقول: إن الحياة الحقيقية هي حياة القلوب والقرب من علام الغيوب، فقد حكم الله تعالى على الكفار أنهم أموات بسبب معاصيهم وشركهم، قال تعالى: ﴿ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ﴾[النحل: ٢١] فالحياة الحقيقية مع الطاعة والقرب من الله، فكلما قصر الإنسان وارتكب المعاصي؛ لم يذق هذه الحياة الطيبة الحقيقية، وبذلك يقصر عمره الذي في طاعة الله.

- ضعف رغبة الإنسان في التوبة إلى الله شيئا فشيئا: فيستمر في المعاصي، وبسبب كثرتها يشعر بأنه لا يريد أن يتوب إلى ربه.
- مع ارتكاب المعاصي، فإن العاصي يشعر بأن لذة المعصية تزداد إذا جهر بها، فيرتكب المعصية ثم يستره الله جل جلاله، ثم إذا به يجهر بمعصيته ويحدث الناس بما فعل ويجد في ذلك اللذة، يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: **"كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولَ: يَا فُلَانُ عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ"**[1].

[1] رواه الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه (٦٠٦٩)، واللفظ له، ورواه الإمام مسلم رحمه الله في صحيحه (٢٩٩٠).

كلما تكلمنا عن أثر من آثار المعصية، يجد أحدنا أن هذا الأثر قد أصابه، والآخر يقول: الحمد لله لم يصبني هذا الأثر بعد، ثم إذا تحدثنا عن أثر آخر فإنه يقول: أما هذا فقد أصابني.

● زوال النعم: وهذا الأثر قد أصابنا جميعا، فانظر إلى النعم التي زالت الآن وقد كانت موجودة قبل ذلك، ولن ترجع هذه النعم مرة أخرى إلا إذا تخلينا عن المعاصي ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾[الشورى: ٣٠].

● شؤم المعصية: فالمعصية لها شؤم –والعياذ بالله–، يقول مجاهد رحمه الله: "**الْبَهَائِمُ تَلْعَنُ عُصَاةَ بَنِي آدَمَ حِينَ أَمْسَكَ اللَّهُ عَنْهُمْ بِذُنُوبِ بَنِي آدَمَ الْمَطَرَ، فَتَخْرُجُ الْبَهَائِمُ فَتَلْعَنُهُمْ**"[1]، فقد تعصي معصية فينتقل شؤمها إلى زوجتك وأولادك، وقد تعصي الأمة معصية فينتقل شؤمها إلى الأجيال التي بعدها.

● الذلة بعد العزة: قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر: ١٠]، وكان من دعاء السلف: "**اللَّهُمَّ أَعِزَّنِي بِطَاعَتِكَ، وَلَا تُذِلَّنِي بِمَعْصِيَتِكَ**"[2]، يقول ابن المبارك رحمه الله:

رَأَيْت الذُّنُوبَ تُمِيتُ الْقُلُوبَ ... وَقَدْ يُورِثُ الذُّلَّ إدْمَانُهَا

وَتَرْكُ الذُّنُوبِ حَيَاةُ الْقُلُوبِ ... وَخَيْرٌ لِنَفْسِك عِصْيَانُهَا[3]

فالذنب سبب للذلة في أي مكان.

● قلة الغيرة في القلب: فالغيرة على محارم الله تشتعل في القلب الذي ينبض بالإيمان، وتقل شيئا فشيئا في القلب الذي يرتكب صاحبه المعاصي، ولهذا كان النبي ﷺ أغير الأمة، ويقول: "**وَاللَّهُ أَغْيَرُ مِنِّي**"[4]، فكلما ارتكب المرء المعاصي؛ فإن الغيرة تقل من قلبه، حتى لا يعبأ بهذه الغيرة على أهله.

● قلة الحياء في القلب، يقول النبي ﷺ: "**إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ**"[5]، فما دام المرء لا يستحيي ويعصي الله ﷻ؛ فيفعل ما يشاء، فإنه لا رابط له ولا ضابط.

● قلة توقير الرب في القلب: لأنه لو كان توقير الله موجودا في القلب؛ ما عصى المرء ابتداء، يقول تعالى: ﴿ مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ﴾ [نوح: ١٣]، فكلما عصى ابن آدم؛ كلما قل توقير الله في قلبه، فيرتكب المعاصي ولا يعبأ بأن الله تعالى ينظر إليه.

● نسيان المرء لنفسه، ولشؤونها، ونسيانه لصحته ومصلحته، يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾

[الحشر:١٨–١٩].

---

[1] تفسير الإمام الطبري ط هجر (٧٣٤/٢).

[2] الداء والدواء (٥٩/١)، للعلامة ابن القيم رحمه الله.

[3] إعلام الموقعين عن رب العالمين (٨/١)، للعلامة ابن القيم رحمه الله.

[4] رواه الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه (٧٤١٦)، ورواه الإمام مسلم رحمه الله في صحيحه (١٤٩٩).

[5] رواه الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه (٦١٢٠).

● الشعور بخوف وعدم أمن يصيب القلب: وحقيقة ذلك أن الإنسان عندما يكون في طاعة الله يكون في حصن حصين، فمهما حدث له من أحداث ومواقف؛ فإنه يأنس بالله ﷻ، فلا يضره شيء، وكلما ابتعد الإنسان عن ربه؛ أخافه الله من كل شيء.

● سوء الخاتمة –والعياذ بالله–، فإن الإنسان العاصي حال قوته إذا أصابه أذى أو ابتلاء؛ فإنه ينسى الله ﷻ، ويقول: لو كان حدث كذا ما كان كذا، ويبحث عن الأسباب لتنجيه مما هو فيه، ولا يلجأ إلى ربه تبارك وتعالى، فما بالك به وهو عاص حال أكبر مصيبة وأكبر ابتلاء يصيبه وهو خروج الروح من جسده، فهل يتذكر الله حينئذ؟!

إذن فهذه آثار المعاصي التي تصيبنا نتيجة لمعاصينا، والسبيل الوحيد للنجاة هو التوبة، وهي الوظيفة الثانية لمن أصيب بالبلاء، وعلم أن سببها التقصير، والغفلة، والمعاصي، ولكن المقصود هو التوبة الحقيقية التي لا تتحقق إلا بشروط.

شروط التوبة:

١. الصدق في التوبة.

٢. أن تكون التوبة في وقتها، ووقت التوبة كما قال النبي ﷺ: "**إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ**"[١]، وقبل أن تطلع الشمس من مغربها.

٣. الإقلاع عن الذنب.

٤. الندم على الذنب.

٥. العزم على ألا يرجع إلى الذنب مرة أخرى.

وهذه الشروط الخمسة لا بد أن يقوم بها التائب حتى نقول إن ما فعله توبة.

مسألة هامة:

هل توبتنا التي نقوم بها هي حقا توبة، أم أنها غفلة وليست توبة؟

يقول النبي ﷺ فيما يحكيه عن ربه ﷻ: "**أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ ثُمَّ عَادَ، فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ، فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ اعْمَلْ مَا شِئْتَ**"[٢]، هذا الحديث ينطبق على من تاب توبة حقيقية، يتوب ويعود بعد ذلك، ثم يتوب مرة أخرى، فهذا مدحه الله ﷻ ولم يذمه، ولكن هناك فرق بين من تاب وحقق شروط التوبة، وبين من لم يحقق شروط التوبة فهو لم يتب إلى الآن.

فعلى المرء حال توبته مراقبة نفسه في تحقيق شروط التوبة.

فيتحقق من عزمه على ترك المعصية وعدم العودة إليها مرة أخرى، فيسأل نفسه هل عزم على ذلك أم لا.

---

[١] أخرجه الإمام الترمذي رحمه الله في سننه (٣٥٣٧)، وحسنه الشيخ الألباني رحمه الله في صحيح الترمذي رحمه الله (٣٥٣٧).

[٢] رواه الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه (٧٥٠٧)، ورواه الإمام مسلم رحمه الله في صحيحه (٢٧٥٨)، واللفظ له.

يسأل نفسه هل هو ندم على فعل المعصية ندما حقيقيا بأن يظن في نفسه أنه لم يفعل ما أمر الله، و لم يجتنب ما نهى عنه الله، و لم يقف عند حدود الله.

هل عزم على نفسه عزما أكيدا على الإقلاع عن المعصية، من الناس من لا يقلع عن المعصية، ويقول: أنا لا أستطيع التوبة؛ لأني لا أستطيع الإقلاع عن المعصية.

ومن الناس من يقول: إنه أقلع عن المعصية، ولكن ما بداخله أن لم يعزم عزما أكيدا على الإقلاع عن المعصية، فالموظف الذي يرتشي، ثم أتت إجازة من العمل، وهو يعلم أن الرشوة محرمة، فيترك الرشوة ويتوب منها؛ لأنه في إجازة، وهو ينوي أنه عندما يرجع إلى عمله أن يعود إليها مرة أخرى، فهذا لم يتب على الحقيقة، فإذا مات على ذلك؛ فهو ليس بتائب.

فمن لا يتوب لأنه لا يستطيع الإقلاع عن المعصية أو لأنه لا يستطيع أن يعزم على عدم العودة إليها، لا بد أن يتعلم كيف يتوقف عن المعصية، وكيف يعالج نفسه منها قبل أن تتوب.

إن بعض المعاصي تتعلق بالقلب، فلا يستطيع المرء الانفكاك عنها، فإذا قيل للمرء: تب إلى الله، قال: لا أستطيع، وهذا والحقيقة أنه يستطيع؛ لقوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقد كلفنا الله ﷻ بترك المعاصي، فكيف يكلف الله نفسا بترك المعاصي ويحاسبها عليها، وهذا المرء لا يستطيع تركها؟ إذن صدق الله وكذبت نفسك، فأنت تستطيع أن تترك المعصية.

ولكن لكل شيء علاج، فكيف تعالج نفسك لكي تترك هذه المعصية؟

١.أول العلاج هو الصدق مع الله ﷻ، فاختل بربك في هدوء وسكينة، واجلس مع نفسك وقل لها: لا بد أن أتوب، وأن تكون التوبة لله وحده لا لشيء آخر، ويحاول المرء مع نفسه حتى يصدق مع الله ﷻ.

٢.الدعاء، فالشيء الذي تعجز عنه استعن عليه بالدعاء، فادع الله في أوقات الإجابة؛ ومنها: بين الأذان والإقامة، وفي السحر، وأن يدعو لك والداك، واطلب الدعاء من الصالحين بأن يعافيك الله من البلاء والمعصية التي أعجزتك نفسك على أن تتركها.

٣.المجاهدة، فلا تستسلم للمعصية، وجاهد نفسك ولو شيئا يسيرا، فترة من الزمن، ساعة أو ساعتين، فمن أدمن النظر إلى المواقع الإباحية كلما سنحت له فرصة، فعليه أن يجاهد نفسه، واترك هذا شيئا فشيئا، وأخر المشاهدة وقتا فوقتا، ومجاهدة النفس بقوة قبل المعصية، فإن صاحب المعصية كلما ابتعد عنها فهو في أقوى أوقاته، فمن يعرف امرأة، وهما يفعلان المعاصي، فهو في بيته أقوى من أن يتكلم معها في الهاتف، فإذا تكلم معها في الهاتف؛ فإنه يكون أقوى من أن يسير إليها، فإذا سار إليها؛ فإنه أقوى من أن يلاقيها، وهكذا، فكلما كان المرء بعيدا عن المعصية كلما كان قويا، فعلى المرء أن يجهز على المعصية في وقت قوته، فالضعف يدب كلما اقتربت من المعصية.

٤.[illegible]

٥.البحث عن بديل للمعصية، فالمرتشي يبحث عن عمل آخر، والذي يعشق عشقا محرما يبحث عن بديل كالصيام والزواج.

٦.تدبر آثار المعاصي، فإنه إذا تدبرها خاف أن يصاب بها، فيتوب إلى الله من المعصية.

٧.أن يتدبر أحواله عندما تخرج روحه ويموت، وعندما يغسل، ويكفن، ويقبر، وعندما يسير على الصراط، فيتدبر هذه

المحن، ويقول لنفسه: لأن آتي هذه المحن وأنا متخفف من المعاصي خير لي أن آتيها وأنا حامل لهذه المعاصي.

٨.يعلم أن الله يراقبه، والعجيب أننا نرتكب المعاصي بيننا وبين الله، فإذا دخل أحد علينا؛ أقلعنا عن المعصية، فجعلنا الله أهون الناظرين إلينا، فنحن نكذب على فلان، ونختبئ من هذا، أما الله فنعصي أمامه ولا نستحيي منه ﷻ.

٩.حسن الظن بالله، وبعض الناس لا يحسن أن يحسن الظن بالله، فيظن أن حسن الظن بالله فقط أن الله رحيم وسوف يرحمه، وهذا خطأ، فالمسلم إذا رأى أخاه مبتلى؛ فإنه يرحمه، وهو العبد الذي لا يملك من أمره شيئا، أما حسن الظن بالله فمعناه أن الله رحيم وهو على كل شيء قدير، فكم من رحيم لا يستطيع أن يرحم! وكم من إنسان يريد أن يخدم غيره وهو لا يستطيع! أما الله فهو على كل شيء قدير ﷻ، وهو يرحم عبده المبتلى، فتحسن الظن بربك، فإذا أحسنت الظن في من هو على كل شيء قدير، وسوف يرحمك من هذا البلاء؛ فهذا هو المطلوب.

فإن لم يستطع المرء أخذ هذا العلاج كاملا؛ فلا أقل من أن يزاحم المعصية بالطاعات، والتخفيف من المعاصي الأخرى، وهذا سهل، فالمعصية قد تمكنت من القلب، فاجعل حولها طاعات، فمثلا من يشرب الخمر، ويدعي عدم استطاعته عن الإقلاع عنها، فليس أقل من أن يفعل الطاعات، فإن كان يشرب الخمر بالليل؛ فإنه في باقي اليوم يصلي، ويصوم، ويكثر من الطاعات، وسيوسوس له الشيطان بأنه يطيع الله أمام الناس، ويعصيه خلفهم، فيكون رده على الوسوسة بأن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، ويقول للشيطان: أطيع الله أمام الناس طمعا أن يرحمني من معصيتي ولو كان خلف الناس، وهذا لمن كان قلبه ما زالت فيه حياة، وليس لمن مات قلبه.

عباد الله! هذا الكلام لمن يريد التوبة وما زال قلبه حيا، هذا الكلام لإنسان صالح ابتلي ببلاء المعصية ولا يستطيع أن ينفك عن المعصية.

فمن أهم الوظائف التي لا بد أن نقوم بها في هذا الكرب، والغم، والبلاء، هو أن نعرف آثار المعاصي، ونتوب إلى الله من هذه المعاصي، بعد أن نعالج أنفسنا من جراء هذه المعاصي، فهذا هو الحل للخروج مما نحن فيه، وهذا الكلام لا يختلف عليه أحد من الناس، وهذا الحل هو مصداق قول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾[الشورى: ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾[النساء: ٧٩]، وقوله تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١]، وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾[محمد: ٧]، عباد الله! هذا لمن أراد التغيير، وغير ذلك فهباء منثور، فإن كنت لم تعرف قبل ذلك؛ فقد عرفت الآن، فقد سئل

النبي ﷺ: **"مَا النَّجَاةُ؟ قَالَ: أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ"**[1]، فالابتلاء الذي نحن فيه لا نشعله بزيادة في القتل، والغضب، والشقاق، فالطريق القويم الذي عليه الأدلة هو اتهام النفس وإصلاحها، فإن أصلحنا أنفسنا؛ دانت لنا الدنيا كلها.

وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد ﷺ.

ملحوظة: تابعوا معنا هذه الوظائف في الجمع القادمة، من أراد مشاهدة الخطب فليتابعنا على موقع جمعية الترتيل: al-tarteel.com

[1] أخرجه الإمام الترمذي رحمه الله في سننه (٢٤٠٦)، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في صحيح الإمام الترمذي رحمه الله (٢٤٠٦).